مُعَوِّقاتُ النَّظَرِ العَقْلِيِّ في القُرْآنِ الكَرِيمِ

-دِرَاسَةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ-

م.د. ضرغام علي محيي المدني

جامعة الكوفة - كلية التربية المختلطة

فحوى البحث

اشتمل القرآن الكريم على توجيهات لتنمية النظر العقلي تتمثل في ذم هوى النفس، واتباع الآباء والاجداد في ما وضعوه من سنن وعادات ما أنزل الله بها من سلطان، ورفض كل الأمور التي تحدّ من جمود العقل البشري الذي أوجده الله –سبحانه –حصنا لبني البشر من الهيمنة والسلوك الحيواني، وكذلك النهي عن اتِّباع الظن السيء المذموم الذي يفضي الى التسرّع في إصدار أحكامه.

والقرآن الكريم، حين يدعو الى التحرر من العوائق، فهو إنما يؤسس للتفكير والنظر السليم، والذي إن أصابهما الخلل، فسيكون التفكير منحرفا لانه مقيّد بقيود تمنعه من بلوغ الحق.

مقدمة:

انزل القرآن الكريم بلغة العرب ونهج أساليبهم في الكلام وفنونهم في التعبير، ولم يكن يخرج عن معهود العرب في العرض او البيان او الإستدلال، ولكن على الرغم من ذلك لا نجد اسلوبا يعلو أساليبه، وفصاحته فوق كل فصاحة، فهو معجز بكل ما حواة من علوم واشتمل عليه من معارف، فضلا عما تميز به عن الكتب السماوية الاخرى بآفاقه غير المتناهية كما وصفه رسول الله ﷺ بان ظاهره انيق، وباطنه عميق له تخوم وعلى تخومه تخوم لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه[1]، الا ان واقع المجتمع الذي نزل به القرآن يقوم على التبعية، والتقليد لما تعارف عليه الاباء والاجداد اكثر من قيامه على الاستقلالية الفكرية والعقلية قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٧٠]، ويرى البحث ان من اهم اسباب نزول القرآن هو الحفاظ على العقيدة الاسلامية وذلك بنفض غبار الجهل عن عقائد العرب وتنقيتها من شوائب الوثنية الفاسدة التي كانت متربعة على عقول وقلوب الناس قبل نزوله. فضلا عن اظهار استقامة شريعة الاسلام وكشف فساد هذه العقائد وبطلانها ولذا فقد تنوع خطاب الوحي في الاستدلال العقلي بتنوع صور الفساد الذي شمل الاديان والعقائد السابقة لنزول القرآن، لذا نجده قد وقف موقف المجادل امام التيارات المنحرفة والنزعات الباطلة التي حاولت انكار حقائقه واسسه فأفحمها وعارضها بأسلوب مقنع واستدلال ملزم وجدل محكم.

ثم من غير الممكن معرفة ظهور معوقات النظر العقلي في الدراسات القرآنية على وجه التحديد غير ان الاستقراء الناقص يدلنا على ان ابا حامد الغزالي (ت٥٠٥ هـ) ربما يعد اول من نظّر اليه وتناوله من المتقدمين على نحو منهجي منظم تحت تسمية موانع الفهم حيث تحدث في الباب الثالث من كتاب

(١) ظ الكليني، الكافي: ٢/ ٤٣٨.

(آداب تلاوة القرآن) عن عشرة اعمال أدرجها تحت عنوان الآداب الباطنية للتلاوة وهي: فهم اصل الكلام، ثم التعظيم، ثم حضور القلب ثم التدبر، ثم التفهم، ثم التخلي عن موانع الفهم، ثم التخصيص، ثم التأثر، ثم الترقي، ثم التبري[٢].

ومن الملاحظ ان هذا المصطلح برز في سياق التعامل العميق مع القرآن العظيم الذي يتجاوز ظاهر الالفاظ ويغوص في اغوار معانيها، فيتوجب لمن يطمح ان يتعاطى مع القرآن على هذا المستوى ان يتخلى عن معوقات النظر العقلي او موانع الفهم التي تحول بينه وبين كتاب الله تعالى، اذ ما من انسان يزعم انه خال من موانع الفهم سواء على مستوى التعامل النظري التفسيري، ام على مستوى التعامل الاجتماعي العادي، والذي يبعث على الاسف هو خلو مصنفات علوم القرآن قديما والكتب المعنية بمنهجيات التفسير حديثا من هذا المصطلح ما خلا ايماءات متناثرة[٣]، ولعل اهم كتابين واكثرها شيوعا في مصنفات علوم القرآن ومنهجيات التفسير منذ القرن الثامن الهجري هما (البرهان في علوم القرآن) للزركشي (ت٧٩٤هـ)، والاتقان في علوم القرآن للسيوطي (ت٩١١هـ)، لا نعثر فيهما الاعلى ايماءة سريعة نقلها السيوطي عن الزركشي لخص فيها الاخير ابرز ما ذكره الغزالي من موانع فهم القرآن في عبارة مكثفة قال فيها: ((قال في البرهان: اعلم انه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي، ولا يظهر له اسراره وفي قلبه بدعة او هوى او حب دنيا، او هو مصر على ذنب، او غير متحقق بالإيمان، او ضعيف التحقيق او يعتمد على قول مفسر ليس عنده علم، او راجع الى معقوله، وهذه كلها حجب وموانع بعضا آكد من بعض))[٤].

ويجد البحث في قبالة ذلك العناية

(٢) ظ الغزالي، احياء علوم الدين: ١/ ٢٨٠.

(٣) ظ الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ٢/ ١٧٠ -١٧٢+ جواد علي كسار، فهم القرآن: ١/ ٢٩٩.

(٤) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن: ٣/ ٢١٦.

الفائقة التي اولاها رموز مدرسة السلوك والذي في مقدمتهم صدر الدين الشيرازي (ت١٠٥٠هـ) الذي جعل كتابه (مفاتيح الغيب) مقدمة منهجية لتفسيره القرآني، فقد مكث غير قليل مع مقولة موانع الفهم وضرورة التخلي عنها لمن يريد النظر في علوم القرآن والتدبر بآياته، الا انه تابع الغزالي في هذه المسألة على مستوى المنهج والمضمون والعبارة، اذ اغلب عباراته هي نفسها عبارات الغزالي وربما زاد عليها او انقص منها او عضدها بدليل نقلي او شاهد حسي[٥].

الا انه احدث تغييرا ملحوظا ولكنه طفيف اذ قسم الحجب على داخلية وخارجية ثم عاد ليذكر تحت كل واحد من هذين القسمين حجبا عدمية واخرى وجودية، ولذا سمح له هذا التعديل ان يتحدث في وقت واحد عن منطلقين لهذه الحجب احدهما وجودي يرتبط بالإنسان نفسه من حيث قلبه وروحه وقواه المعنوية، والاخر ادراكي مرتبط بالإنسان ايضا لكن من جهة عقله ونظره وقواه العقلية[٦].

ومهما يكن من امر فالقرآن الكريم يولي النظر العقلي عناية فائقة، وقد حذر من أي عائق يقف امام تنمية العقل، لان تغلغلها في النفوس يؤدي الى اغلاق منافذ التفكير ظاهرا ومن ثم الحرمان من ذلك المنهل الالهي قال تعالى: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ [سورة نوح: ٧].

واذا لم تغلق في الظاهر تأبى هذه النفس السماع باطلا قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [سورة الاعراف: ١٧٩].

وبعد هذه الجولة السريعة يمكن ان نقسم معوقات النظر العقلي على اربعة اقسام رئيسة نوردها كالاتي:

(٥) ظ الشيرازي، مفاتيح الغيب (الفاتحة الثانية من المفتاح الثالث): ٥٨.

(٦) ظ المصدر نفسه/ ٥٩ – ٦٠.

أولا: عوائق ذات بعد عقلي:

أ. اتباع الظن الكاذب:

يعد اتباع الظن من اخطر العوامل المعرقلة للنظر العقلي في القرآن الكريم، التي تؤدي بأفكار الغالبية الى مهاوي العقائد الفاسدة، والشبهات الباطلة، ولذلك كثيرا ما نجد الآيات القرآنية تصدح باجتناب الظن وعدم بناء العقيدة على دعائمه قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [سورة الحجرات: ١٢].

والظن اسم لما يحصل عن امارة، فان قويت ادت الى العلم، وان ضعفت لم تتجاوز حد الوهم يقول الراغب الاصفهاني (ت ٤٥٢هـ): ((الظن اصابة بضرب من الامارة، ولما كانت الامارة مترددة بين يقين وشك فيقرب تارة من طرف اليقين وتارة من طرف الشك، صار تفسير اهل اللغة مبهما، والظن متى كان عن امارة قوية فانه يمدح ومتى كان عن تخمين لم يعتمد وذم به)) [٧].

إن المراد من الظن المنهي عن اتباعه هو الظن الذي لا يرجع إلى اليقين أما إذا كان مدرك حجية هذا الظن قطعياً فلا مانع من متابعته، وعلى هذا فالظن على قسمين محمود وضابطه ما سلم معه دين الظان والمظنون به ومذموم، والذي اشارت اليه الآية الانفة الذكر فهو تهمة تقع في القلب بلا دليل، وليس المراد ترك العمل بالظن الذي تناط به الاحكام غالبا بل المراد به المظنون الذي لا يفيد يقينا... والمبني على الظن اولى ان يكون ظنيا[٨].

ومن هنا حرّم الله سبحانه وتعالى التعويل على الظن، والاخذ به، فكان الوقوف عند الظن دون السعي لطلب العلم واليقين هو ما يذمه القرآن الكريم لأنه لا يغني عن الحق شيئا قال تعالى: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن

(٧) الراغب الاصفهاني، الذريعة الى مكارم الشريعة/ ١٨٥+ السيوطي، الاتقان: ١/ ٢١٣+ المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير: ٣/ ١٥٨.

(٨) ظ الرازي، التفسير الكبير: ٢/ ١٠٣-١٠٤+ العظيم ابادي، عون المعبود: ١٣/ ١٧٧+ بحر العلوم، الامامة الالهية تقرير بحث الشيخ محمد السند: ١/ ٣٢.

﴿يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ [سورة النجم: ٢٨]، يقول السيد الطباطبائي: ((فإن اتباع الظن والحدس الذي لا يستند إلى أساس ثابت يجر الإنسان في النهاية إلى وادي الكذب عادة. والاشخاص الذين جعلوا الأصنام شريكة لله سبحانه لم يكن لهم مستند في ذلك إلا الأوهام.. الأوهام التي يصعب علينا اليوم حتى تصورها، إذ كيف يمكن أن يصنع الإنسان تماثيل ومجسمات لا روح لها، ثم يعد ما صنعه وخلقه ربا له وأنه هو صاحب إرادته، وأن أمره بيده؟!. يضع مقدراته في يده وتحت تصرفه ويطلب منه حل مشاكله؟!. أليست هذه الدعوى من أوضح مصاديق الزيف والكذب؟. بل يمكن استفادة هذا من الآية كقانون كلي عام -بدقة قليلة- وهو أن كل من يتبع الظن والأوهام الباطلة فإنه سينجر في النهاية إلى الكذب.. إن الحق والصدق قائم على أساس القطع واليقين، أما الكذب فإنه يقوم على أساس التخمينات والظنون والشائعات!.))[٩].

فوصفهم سبحانه بعدم العلم وبالكذب والتخرص: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [سورة يونس: ٦٦]، فالآية مسوقة لذمهم في اتباع الباطل وتأكيد لما تقدم من أنه لا برهان لهم على ذلك ويؤكده قوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ والمعنى إن يتبع هؤلاء المشركون في أمر آلهتهم إلا الظن والحال أنه قد جاءهم من الله وهو ربهم الهدى وهي الدعوة الحقة أو القرآن الذي يهديهم إلى الحق، والالتفات في الآية من الخطاب إلى الغيبة للإشعار بأنهم أحط فهما من أن يخاطبوا بهذا الكلام على أنهم غير مستعدين لان يخاطبوا بكلام برهاني وهم أتباع الظن والهوى[١٠].

(٩) محمد حسين الطباطبائي، الميزان: ١٠/ ٦١.
(١٠) ظ محمد حسين الطباطبائي، الميزان: ١٩/ ٣٩-٤٠+ ناصر مكارم الشيرازي، تفسير الامثل: ٦/ ٤٠٤+ باقر القرشي، النظام التربوي في الاسلام/ ٢٤٤.

ومهما يكن من امر يرى البحث ان النهي عن اتباع الظن المذموم يوجب على المسلم الا يتسرع في اصدار احكامه وان يبذل وسعه للإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه والتفكير السليم هو الذي يقود صاحبه الى احكام صائبة وهذا اول ما توصف به العقلية العلمية في القرآن الكريم لأنها ترفض الظن في كل موضع يطلب فيه اليقين كما في مقام تأسيس العقائد التي تقوم على نظرة الإنسان الى الوجود، والقرآن حين يدعو الى التحرر من العوائق والتي منها اتباع الظن المذموم انما يؤسس القاعدة الاساسية للتفكير والنظر السليم، التي ان اصابها خلل فسيكون التفكير منحرفا لأنه مغلول بقيود تمنعه من بلوغ الحق.

ب. الاستسلام للأساطير والخرافات:

الأساطير واحدها أسطورة بالضمّ وإسطارة بالكسر وهي الترهات والاوهام والأباطيل، وقيل أصلها من سطر الكلام أي كتابته، ومنه قوله تعالى: ﴿ نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴾ [سورة القلم: ١]، فكأنها أشياء كتبت من الباطل فصار ذلك اسما لها مخصوصا بها يقال سطر فلان علينا تسطيرا إذا جاء بالأباطيل[١١].

و **الخُرافةُ**: الحديثُ المُسْتَمْلَحُ من الكذِبِ، يقال أُحَدِّثُكَ حَدِيثَ خُرافةَ، يريد به الخُرافاتِ الموضوعةَ من حديث الليل، أَجْرَوْه على كل ما يُكَذِّبُونَه من الأَحاديث، وعلى كل ما يُسْتَمْلَحُ ويُتَعَجَّبُ منه[١٢]، وقالوا: حديث خُرافةَ، ذكر ابن الكلبي أَنَّ خُرافةَ من بني عُذْرَةَ أَو من جُهَيْنَةَ، اخْتَطَفَتْه الجِنُّ ثم رجع إلى قومه فكان يُحَدِّثُ بأَحاديثَ مما رأى يَعْجَبُ منها الناسُ فكذَّبوه فجرى على أَلْسُنِ الناس... والخرف فساد العقل من الكبر[١٣].

فالأساطير والخرافات ما هي الا تصورات واوهام فاسدة تفتقر الى

(١١) ظ الفراهيدي، معجم العين: تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي –الدكتور ابراهيم السامرائي: ٧/ ٢١٠. ابن فارس، مقاييس اللغة: ٣/ ٧٣+ ابن منظور، لسان العرب: ٤/ ٣٦٣+ المجلسي، مرآة العقول في شرح اخبار ال الرسول: ٣٦/ ٢٤٦.

(١٢) ظ ابن منظور، لسان العرب: ٩/ ٦٦. (خرف).

(١٣) ظ الرازي، مختار الصحاح/ ٩٨؛ ١٧٣.

الدليل والبرهان، يتوارثها الناس احيانا فتكتسب هالة من التقديس، وتصبح بمرور الزمن امورا مسلّما بها لا تحتاج الى نظر وتفكير، بل تصبح مخالفتها والخروج عليها امرا صعبا.

لقد أحاط بالبشرية ظلام حالك قبيل بعثة النبيﷺ، نشطت فيه الخرافات وانزوت الأفكار الصالحة، ودب الجهل وانكمش العلم، وعم اليأس وقل الأمل، وأوشكت الإنسانية أن تفقد كل ما حققته الأجيال الطويلة من تقدم، وأن تتردى في هوة سحيقة هي إلى عالم الحيوان أقرب نتيجة الأساطير والخرافات الشائعة بين العرب، نظرا لانخفاض مستواهم الفكري وأميتهم بصورة عامة، وما عبادة الأصنام الا وليدة الخرافات(١٤)، ومن هنا كثيرا ما ذكر القرآن الاساطير على السنتهم في آياته المباركة قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [سورة الانفال: ٣١]، ويدخل في الاساطير والخرافات ما يدعيه الكهنة والعرافون من علم، وما هو بعلم انما هي جملة من الاباطيل الملفقة، يقول الامام الصادقؑ: ((والكهانة كانت في الجاهلية في كل حين فترة من الرسل، كان الكاهن بمنزلة الحاكم يحتكمون إليه فيما يشتبه عليهم من الأمور بينهم، فيخبرهم عن أشياء تحدث، وذلك من وجوه شتى، فراسة العين، وذكاء القلب، ووسوسة النفس، وفتنة الروح، مع قذف في قلبه، لأن ما يحدث في الأرض من الحوادث الظاهرة فذلك لعله يعلمه الشيطان ويؤديه إلى الكاهن، ويخبره بما يحدث في المنازل والأطراف، وأما أخبار السماء فإن الشياطين كانت تقعد مقاعد استراق السمع إذ ذاك، وهي لا تحجب، ولا ترجم بالنجوم، وإنما منعت من استراق السمع لئلا يقع في الأرض سبب تشاكل الوحي من خبر

(١٤) ظ محمد باقر الحكيم، علوم القرآن/ ٦٩-٧٠+ محمد هادي اليوسفي، موسوعة التاريخ الاسلامي: ١/ ١٣٧-١٣٨+ احمد شلبي، مقارنة الاديان، الاسلام/ ٣٦.

السماء، فيلبس على أهل الأرض ما جاءهم عن الله، لإثبات الحجة، ونفي الشبهة، وكان الشيطان يسترق الكلمة الواحدة من خبر السماء بما يحدث من الله في خلقه فيختطفها، ثم يهبط بها إلى الأرض، فيقذفها إلى الكاهن، فإذا به قد زاد كلمات من عنده، فيخلط الحق بالباطل، فما أصاب الكاهن من خبر مما كان يخبر به فهو ما أداه إليه الشيطان لما سمعه، وما أخطأ فيه فهو من باطل ما زاد فيه، فمنذ منعت الشياطين عن استراق السمع انقطعت الكهانة، واليوم إنما تؤدي الشياطين إلى كهانها أخبارا للناس بما يتحدثون به، وما يحدثونه، والشياطين تؤدي إلى الشياطين ما يحدث في البعد من الحوادث، من سارق سرق ومن قاتل قتل، ومن غائب غاب، وهم بمنزلة الناس أيضا، صدوق وكذوب...))[١٥] [١٦]، ولذا بين القرآن الكريم أن من أهداف بعثة رسول الله ﷺ أنه (يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم)، فما هو الإصر وما هي الأغلال التي كانت عليهم؟. لا شك أنها لم تكن أغلالا من حديد، بل الغرض منها هي تلك الأوهام والخرافات التي كانت تمنع عقولهم وأفكارهم عن الرشد والنمو، ولا شك أنها لا تقل عن أغلال الحديد ثقلا وضررا[١٧].

يقول السيد محمد باقر الصدر (ت ١٤٠١هـ): ((ومن المعطيات الثورية للحرية الفكرية في الإسلام: الحرب التي شنها على التقليد وجمود الفكر، والاستسلام العقلي للأساطير أو لآراء الآخرين، دون وعي وتمحيص، والهدف الذي يرمي إليه الإسلام من ذلك تكوين العقل الاستدلالي أو البرهاني عند الإنسان، فلا يكفي لتكوين التفكير الحر لدى الإنسان ان يقال له: فكر كما يحلو لك، كما صنعت الحضارة الغربية لان هذا التوسع في الحرية سوف

(١٥) الطبرسي، الاحتجاج: ٢/ ٨١ -٨٢.

(١٦) البحراني، شرح مئة كلمة لامير المؤمنين عليه السلام/ ٨٥.

(١٧) ظ محمد هادي اليوسفي، موسوعة التاريخ الاسلامي: ١/ ١٣٨ -١٣٩.

يكون على حسابها، ويؤدي في كثير من الأحايين إلى ألوان من العبودية الفكرية تتمثل في التقليد والتعصب وتقديس الخرافات، بل لا بد في رأي الإسلام لإنشاء الفكر الحر أن ينشئ في الإنسان العقل الاستدلالي أو البرهاني الذي لا يتقبل فكرة دون تمحيص ولا يؤمن بعقيدة ما لم تحصل على برهان ليكون هذا العقل الواعي ضمانا للحرية الفكرية وعاصما للإنسان من التفريط بها، بدافع من تقليد أو تعصب أو خرافة. وفي الواقع ان هذا جزءً من معركة الإسلام لتحرير المحتوى الداخلي للإنسان فهو كما حرر الإرادة الإنسانية من عبودية الشهوات، كذلك حرر الوعي الإنساني من عبودية التقليد والتعصب والخرافة، وبهذا وذاك فقط أصبح الإنسان حرا في تفكيره وحرا في إرادته))[18].

ت. اضطراب الحالة العقلية:

هنالك عدة عوامل ومؤثرات تؤدي الى اضطراب الحالة العقلية، وهذه المؤثرات على قسمين:

احدهما: المؤثرات المادية: وفي مقدمتها الخمر والمسكرات والمفترات.

فالخمر: كل ما اسكر من عصير العنب لأنها خامرت العقل، والخمر: ما خمر العقل به، وهو المسكر من الشراب، والعرب تسمي العنب خمراً باعتبار ما يؤول إليه، فالتسمية مجازية، وعليه حمل قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة يوسف: ٣٦]. فهو يعصر العنب الذي سيصير خمراً[19]، وقد حرّم الاسلام الخمر تحريما باتا وجعلها من الموبقات وكبائر الذنوب لما لها من تأثير على العقل وسمّاه في القرآن الكريم رجسا قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة المائدة: ٩٠]. يقول استاذنا الدكتور

(١٨) محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية/ ١٠٨.

(١٩) ظ محمد حسين الصغير، نظرات معاصرة في القرآن الكريم/ ٩١.

الصغير: ((اعتبرت الخمر رجسا من عمل الشيطان الخاص به، وعمل الشيطان يدعو الى الضلال، واكدت ذلك (بإنما) حصرا، وطلبت الاجتناب امرا، وعلقت على هذا الاجتناب رجاء الفلاح والسعادة الابدية، وعقبت ذلك بأن الشيطان في رجسه يريد ايقاع العداوة والبغضاء بين بني البشر، ويصد الناس عن ذكر الله، وختم ذلك بقوله: (فهل انتم منتهون) دلالة على ان طائفة من المسلمين لم ينتهوا عن شرب الخمر وسواها حتى قرعوا بهذا الاستفهام الانكاري تأنيبا وتوبيخا))[٢٠].

ان تحريم الاسلام تناول هذه المسكرات والمفترات التي يفتقد معها العقل كلا او جزءا، فاذا فقد كلا فقد خرج المرء عن دائرة بشريته الى دائرة الحيوانية بل ادنى منها، فقد وصف الله الذين لا جمدوا عقولهم بالأنعام بل هم اضل سبيلا قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [سورة الاعراف: ١٧٩]، واذا فقد جزءا، فهو تضييع للجوهرة التي وهبها الله لهذا المخلوق دون سائر مخلوقاته ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [سورة الاسراء: ٧٠].

واضاعة هذا التكريم اضاعة لأغلى هبة منحها الله -سبحانه وتعالى -لعبده، والعقل هو مناط التكليف، وبه تتقدم البشرية، وتتفاضل المجتمعات الراقية، وضياع هذا العقل في قارعة الطريق بين موائد الخمر ومباذل الشهوات إجهاز فعلي على إبراز مقومات الروح الإنساني كما يظهر من رواية علي بن بابويه القمي (ت ٣٢٩هـ) عن الامام الصادق عليه السلام: ((وإن الله تعالى حرم الخمر لما فيها من الفساد، وبطلان العقول في الحقائق، وذهاب الحياء من الوجه، وأن الرجل إذا سكر فربما وقع على أمه، أو قتل

(٢٠) محمد حسين الصغير، نظرات معاصرة في القرآن الكريم/ ٩٨.

النفس التي حرم الله، ويفسد أمواله، ويذهب بالدين، ويسئ المعاشرة، ويوقع العربدة، وهو يورث مع ذلك الداء الدفين))[٢١].

وما رواه محمد بن سنان أنه سمع الإمام الرضاعليه السلام يقول: ((حرم الله الخمر لما فيها من الفساد ومن تغييرها عقول شاربيها وحملها إياهم على إنكار الله عز وجل، والفرية عليه وعلى رسله وسائر ما يكون منهم من الفساد والقتل والزنا وقلة الاحتجاز عن شيء من الحرام، فبذلك قضينا على كل مسكر من الأشربة أنه حرام))[٢٢]، فضلا عن ما افصحت عنه كتب الطب من اضرار من بينها الاضطراب العصبي، والهستيريا، وضعف الذاكرة[٢٣]، علة تحريم الخمر فضلا عن ما ابداه الاسلام من دليل قاطع على اهتمامه بالعقل واعماله والحفاظ عليه من المؤثرات والعوائق التي تحول بينه وبين القيام بواجبه وبوظيفته التي خلق من اجلها وحرصه على تحريره -العقل- من اغلال الخمر لينطلق لعمارة الارض والانتفاع بها[٢٤].

ثانيها: المؤثرات المعنوية:

كما ان العقل يتأثر بعوامل مادية تمنعه من وظيفته فانه ايضا يتأثر بعوامل ومؤثرات معنوية تجعله مضطربا ومن ابرز هذه المؤثرات:

أ. قناع المذهبيات الفكرية والتعصبات الباطلة:

يعد التعصب سجية ذميمة، وعقبة امام العلم لما تسد على الإنسان منافذ النور، ومهلكة نجد لها ضحايا في كل عصر وفي كل مصر ولا يقل تأثيرا في النظر العقلي عما سبقه من معوقات، والتعصب بابسط تعريف هو أن يحمي قومه أو عشيرته وأصحابه في الظلم والباطل، أو يلح في مذهب باطل أو ملة باطلة لكونه دينه أو دين آبائه أو عشيرته، ولا يكون طالبا للحق، بل ينصر ما لا يعلم أنه حق أو باطل،

(٢١) القمي، فقه الرضا/ ٢٨٢.
(٢٢) الصدوق، علل الشرائع: ١/ ٢٨٥.
(٢٣) باقر القرشي، العمل وحقوق العامل في الاسلام/ ١٤٩؛ ١٥٣.
(٢٤) ظ محمد حسين الصغير، نظرات معاصرة في القرآن الكريم/ ١٠٢ -١٠٣.

للغلبة على الخصوم، أو لإظهار تدربه في العلوم، أو اختار مذهبا ثم ظهر له خطأه فلا يرجع عنه لئلا ينسب إلى الجهل أو الضلالة، فهذه كلها عصبية باطلة مهلكة ولعل اول من اتصف بالتعصب وغدى امام المتعصبين هو ابليس لعنه الله حينما امره الله سبحانه بالسجود تكريما لادمعليه السلام لقول امير المؤمنين علي ابن ابي طالبعليه السلام: ((... فافتخر على آدم بخلقه، وتعصب عليه لأصله، فعدّه الله إمام المتعصبين، وسلف المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية، ونازع الله رداء الجبرية، وادرع لباس التعزز، وخلع قناع التذلل...))[٢٥] [٢٦].

والمتتبع للتاريخ يتبين ما كانت عليه الامم قبل الاسلام من الجهل وما وصلت اليه من الانحطاط في معارفهم واخلاقهم، فكانت الهمجية سائدة عليهم، والغارات متواصلة فيما بينهم، والقلوب متجهة إلى النهب والغنيمة، والخطى مسرعة إلى إصلاء نيران الحروب والمعارك، وكان للعرب القسم الوافر من خرافات العقيدة، ووحشية السلوك، فلا دين يجمعهم، ولا نظام يربطهم وعادات الآباء تذهب بهم يمينا وشمالا، وكان الوثنيون في بلاد العرب هم السواد الأعظم فكانت لهم -باختلاف قبائلهم وأسرهم -آلهة يعبدونها ويتخذونها شفعاء إلى الله[٢٧].

فوصفهم ان على قلوبهم اكنة وفي اذانهم وقرا قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [سورة الانعام: ٢٥]، في الواقع كانت عقولهم وأفكارهم منغمسة في التعصب الجاهلي الأعمى، وفي المصالح المادية والأهواء، بحيث

(٢٥) الامام علي ابن ابي طالبعليه السلام، نهج البلاغة (شرح وتحقيق الشيخ محمد عبده): ٢/ ١٣٨.

(٢٦) ظ، المجلسي، بحار الانوار: ٧٠/ ٢٨٣+ علي النمازي، مستدرك سفينة البحار: ٧/ ٢٥٠.

(٢٧) ظ ابو القاسم الخوئي، البيان في تفسير القرآن/ ٥٨ -٦٠+ ناصر مكارم الشيرازي، تفسير الامثل: ١/ ٣٤٢.

أصبحت وكأنها واقعة تحت الأستار والحواجز، فلا هم يسمعون حقيقة من الحقائق، ولا هم يدركون الأمور إدراكا صحيحا[٢٨]. وللأسف ما زال هذا التعصب المقيت ممتدا الى عصرنا الحاضر عانى منه الفكر الاسلامي على طول مساره وما يزال بما في ذلك الفكر القرآني باتجاهاته المتنوعة واطيافه المختلفة، ويعزى ذلك بسبب صياغة كل فريق من الفرقاء الاساسيين في تاريخ المسلمين الفِرَقي علم الكلام الخاص به، ومن ثم اسس لرؤية معرفية مستقلة في فهم الاسلام وبخاصة القرآن الكريم، حتى اصبح القرآن ساحة فسيحة لمنظومات فكرية وكلامية ومعرفية مختلفة فضلا عن ان المسألة لم تقف عند هذه التخوم، بل اضيفت اليها خطوط التقاطع والصراع بين المرجعيات المعرفية الثلاث المتمثلة بالفقهاء والفلاسفة والعرفاء، ليتسع ميدان النص القرآني على هذه الاسقاطات الفكرية والمنهجية التي تجئ اليه من الاختلاف والصراع الفِرَقي من جهة وتعدد المرجعيات المعرفية وصراعها من جهة اخرى، ليتحول الى مضمار لا يتخلف عنه اتجاه ولا فرقة ولا مذهب ولا مرجعية من كل ما حفل به تاريخ المسلمين والى يومنا [٢٩]، ويأتي انعكاس الاختلاف على النص القرآني مركبا في اغلب الاحيان، حيث تجتمع فيه حصائل الصراع بين فريق واخر ومرجعية معرفية ومرجعية اخرى مضافا اليه حصائل الصراع الناشئة داخل الاتجاه الفِرَقي الواحد او المرجعية المعرفية الواحدة، والاصطكاك الكائن بين هذه الأنساق يعكس نتائجه على النص القرآني، مضافا الى الممارسة الادراكية الذهنية وما ينجم عن العمل النظري نفسه من تبعات تأخذ موقعها في ثقافة الفكر القرآني[٣٠].

ويصبح هذا الخليط المتراكم المتكون من سليم وسقيم، وصحيح وخاطئ،

(٢٨) ظ ناصر مكارم الشيرازي، تفسير الامثل: ٤/ ٢٤٩.

(٢٩) ظ جواد علي كسار، فهم القرآن: ١/ ٣٢٦-٣٢٧.

(٣٠) ظ المصدر نفسه: ١/ ٣٢٧-٣٢٨.

وحق وباطل جبلا شاهقا امام الإنسان ليكون حاجبا للقران ويمنع من رؤيته على غضاضته الاولى، ثم تتعقد المشكلة وتكتسب ابعادا مضاعفة حينما يضاف الى هذا الخليط من الافكار والانظار والاطر، العصبيات التي تتخندق حول الافكار والانظار والرجال، وتتحول الى اقناع كثيف يغذّيه الجهل والاتباع الاعمى فيزداد سماكة وصلابة[٣١]، خاصة وانه ليس من الطوائف المنتسبة الى العلم والادب شر على العلماء المحقين ولا اضر على الانبياء الهادين، ولا اشد عداوة للمؤمنين بالحقيقة، ولا افسد للعقول من كلام هؤلاء المجادلة وخصوماتهم وتعصباتهم في الآراء والمذاهب... فاذا كان مقلّدا لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت في نفسه التعصّب له بمجرّد الاتّباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة فهذا شخص قيّده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقوفا على مسموعه[٣٢].

ويرى السيد روح الله الخميني قدس سره ان منشأ هذا الحجاب عاملان، ادراكي يتمثل بضعف الاستعداد العقلي، وذاتي ثقافي ناشئ عن التعصب المبتني على الاتباع والتقليد ويرى الاخير راجحا في تفسير الظاهرة يقول: ((من الحجب الاخرى، حجاب الآراء الفاسدة والمسالك والمذاهب الباطلة. وهذا الحجاب ينشأ تارة من سوء استعداد الإنسان نفسه، وفي الاغلب من التبعية والتقليد... ان هذا من الحجب التي حجبتنا بالأخص عن معارف القرآن. مثلا اذا رسخ اعتقاد ما في قلوبنا لمحض الاستماع من الوالدين او كنتيجة للأخذ من بعض جهلة اهل المنبر، فان اهل العقيدة لا تلبث أن تتحول الى حاجب ما بيننا وبين الآيات الالهية الشريفة. وبعد ذلك لو جاءت الوف الآيات والروايات مناهضة لتلك العقيدة، ترانا

(٣١) ظ المصدر نفسه: ١/ ٣٢٨.

(٣٢) ظ الشيرازي، تفسير القرآن الكريم: ١/ ٤٥١ -٤٥٢+ الفيض الكاشاني، المحجة البيضاء: ٢/ ٢٤١.

اما اننا نصرف تلك الآيات والروايات عن ظاهرها او لا ننظر اليها بعين الفهم))[٣٣].

ومهما يكن من امر فان الهدف الذي يتوخاه البحث بإثارة الكلام عن هذا الحجاب، هو مواجهة الشكلانية والسطحية في التعامل مع النص القرآني وشن معركة لا هوادة فيها على الاتباع والتقليد والجمود على الموروث، والتسليم الى المرجعيات المذهبية والاطر المنهجية والكلامية والفكرية المتوارثة، بغية تثوير النص وتفجير مكنوناته والتوغل الى طبقات المعاني الغائرة وراء الظاهر، انسجاما مع مقاصد القرآن؛ ولغاية ان يكون القرآن هو باب معرفة الله.

ب. غياب قصدية التعلم:

ينبغي ان يؤسس الإنسان مع القرآن الكريم علاقة قائمة على آصرة التعلّم بحيث يكون الإنسان قاصدا فهم كتاب الله والتعلم منه، كما من اللازم عدم تخليه عن هذه الاصرة في أي مرحلة من مراحل تعاطيه مع كتاب الله العظيم، ذلك ان الإنسان يعيش حالة التعلم من القرآن ابدا مهما كانت المرحلة التي بلغها[٣٤]، وينبه السيد الخميني الى هذا المعوق بقوله: ((فاذا علمت الان مقاصد هذه الصحيفة الالهية ومطالبها فلا بد لك ان تلفت النظر الى مطلب مهم يكشف لك بالتوجه اليه طريق الاستفادة من الكتاب الشريف، وتنفتح على قلبك ابواب المعارف والحكم وهو ان يكون نظرك الى الكتاب الالهي الشريف نظر التعليم، وتراه كتاب التعليم والافادة وترى نفسك موظفة على التعلم والاستفادة...))[٣٥].

ويرى البحث ان هذا المعوق يؤصد ابواب معارف القرآن وهباته بأقفال محكمة ((والسبب في ان استفادتنا من هذا الكتاب العظيم ضئيلة جدا يعود الى غياب هذا القصد، فنحن لا

(٣٣) روح الله الخميني، آداب الصلاة/ ١٩٦-١٩٧.

(٣٤) ظ جواد علي كسار، فهم القرآن: ١/ ٣٠٦.

(٣٥) روح الله الخميني، اداب الصلاة/ ٣٣٢.

نتعامل معه بقصد التعليم والتعلم، بل غالبا ما تقتصر علاقتنا مع القرآن على القراءة فحسب، نقرأ القرآن لغرض نيل الثواب والاجر، لهذا لا نهتم الا بجهاته التجويدية، فقصدنا ان نتلو القرآن صحيحا لينالنا الثواب، نحن نقنع بهذا القدر وتجمد علاقتنا مع القرآن عند هذه التخوم من دون ان نتخطاها))[٣٦].

ثانيا: عوائق ذات بعد نفسي: وفي مقدمة هذه العوائق:

أ. اتباع الهوى:

ويعد من اخطر الامراض التي تصيب النفس الإنسانية، ويقصد به ميل النّفس وانحرافها نحو الشيء، او انقياد النفس إلى ما يستلذّ به من الشهوات فقد يقع الإنسان بسببه في جملة الكبائر كالبدعة والضلالة والشبهة، او هو ان يبني المرء مشاريعه على أسس غير عقلية، ومن ثم فهي غير واقعية، وإنما هي قائمة على نزوات وشهوات ضخمها الخيال، ثمَّ غلب استعماله في الميل المذموم والانحراف السيئ[٣٧]، بل هو منشأ عبادة الأصنام والغفلة، فليس عبثا أن الرسول الأكرم محمدﷺ عد صنم «الهوى» أعظم وأسوأ الأصنام، لذا قال: ((ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع))[٣٨].

ومن هنا فقد نهى الله تعالى نبيه عن اطاعة متبعي الهوى: ﴿... وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [سورة الكهف: ٢٨]، فضلا عن ان اتباع الهوى أسوأ الضلال لقوله عز اسمه: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة القصص: ٥٠].

وقد ورد في كثير من الروايات ذم اتّباع الهوى والنهي عن العمل به، فهذا امير المؤمنين علي ابن ابي طالبؑ يحذر من اتباع الهوى وطول الأمل في الدنيا قائلا: ((أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَخْوَفَ مَا

(٣٦) المصدر نفسه/ ٣٣٢-٣٣٣.

(٣٧) ظ محمد مهدي شمس الدين، دراسات في نهج البلاغة/ ٢٣٧.

(٣٨) ناصر مكارم الشيرازي، الامثل: ١١/ ٢٩٢.

أَخَافُ عَلَيْكُمُ -اثْنَانِ اتِّبَاعُ الْهَوَى وطُولُ الأَمَلِ-فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ-وأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ- أَلَا وإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ حَذَّاءَ -فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإِنَاءِ -اصْطَبَّهَا صَابُّهَا -أَلَا وإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ ولِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُونَ -فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ ولَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا -فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأَبِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ -وإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ ولَا حِسَابَ وغَداً حِسَابٌ ولَا عَمَلَ وإنما بدء وقوع الفتن من أهواء تتبع وأحكام تبتدع...))[٣٩].

وما ورد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام يقول: ((احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم فليس شيءٌ أعدى للرّجال من اتّباع أهوائهم وحصائد ألسنتهم))[٤٠].

والخلاصة ان اتباع الهوى يسلب الإنسان أهم وسائل الهداية، وهي الإدراك الصحيح للحقائق، ويلقي الحجب على عقل الإنسان وعينه، والتحصن من هذا المعوق خطوة ضرورية لا غنى عنها لطالب الحق والعلم، ذلك أن العالم يجب ان يستبعد كل ما يتعلق بذاته في مقابل ما يسمى (الموضوعية)(*)، والتي هي مبدأ مهم في منهج النظر، وهي تقتضي ان يبحث الموضوع بحثا سليما بعيدا عن الاهواء[٤١].

ب. الاستكبار والاحساس الكاذب بامتلاء الذات:

الاستكبار في اللغة هو اظهار العظمة والتجبر، والاستكبار: التعاظم ومنه قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ

(٣٩) الامام علي ابن ابي طالب، نهج البلاغة، جمع وتحقيق: الشريف الرضي، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية: الدكتور صبحي صالح/ ٨٤+ الكليني، الكافي: ٨/ ٥٨.

(٤٠) الكليني، الكافي: ٢/ ٣٣٥+الطبرسي، مشكاة الانوار في غرر الاخبار/ ١٣٦+ المقدس الاردبيلي، مجمع الفائدة: ١٢/ ٣٦٢+ الحر العاملي، وسائل الشيعة: ١٦/ ٥٧+ البروجردي، جامع احاديث الشيعة: ١٣/ ٢٤٩.

(*) الموضوعية: مجموعة الاساليب والخطوات التي يمكننا من الوقوف على الحقيقة والتعامل معها على ما هي بعيدا عن الذاتية والمؤثرات الخارجية ظ عبد الكريم بكار، فصول في التفكير الموضوعي/ ٤٥.

(٤١) ظ ناصر مكارم الشيرازي، الامثل: ١٦/ ٢١٧-٢١٨.

يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [سورة الاعراف: ١٤٦][٤٢].

وهي اصطلاحا حالة تدعو الى الاعجاب بالنفس، والتعاظم على الغير، بالقول او الفعل وهو: من اخطر الامراض الخلقية واشدها فتكا بالإنسان، وادعاها الى مقت الناس له وازدرائهم به، ونفرتهم منه، وهي خصلة ((من اهم كبريات مكائد الشيطان الذي يوحي للإنسان بالكمالات الموهومة على الدوام ويدعه راضيا بما عنده قانعا به، مستخفا بما وراءه عازفا عن كل ما سواه))[٤٣]، حيث يعيش الإنسان غالب الاحيان احساسا مضخما بذاته، يفضي به اخلاقيا الى التعالي والغرور، ومعرفيا الى العزوف عن الفهم والتعلم واكتفائه بما عنده، وهذا الاحساس الوهمي من الامراض التي تصيب العاملين بالفكر والمعرفة، خاصة اذا ما احرز الإنسان تقدما في احد الاختصاصات مما يؤدي الى طغيان ذلك الاحساس فيكسبه حالة من القناعة بما عنده والرضا عن الذات، وقد تنشأ الذاتية المتضخمة من خلل اخلاقي وقد تقترن بالممارسة العلمية نفسها وتكون نتيجة مصاحبة لها لكنها على كلا التقديرين تنتهي الى الحاق الضرر ببنية المعرفة القرآنية بعد ان تتحول الى معوق يقول السيد الخميني قدس سره: ((من الحجب الكبيرة حجاب الذاتية والغرور وتضخم الذات، حيث يرى الإنسان المتعلم نفسه بواسطة هذا الحجاب مستغنيا لا يحتاج الى الاستفادة...))[٤٤]، ومن ابرز آثار هذا الداء ان الله سبحانه يختم على قلب المتكبر، فلا يميّز بين الحق والباطل قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [سورة غافر: ٣٥]، فضلا عن صرفه عن آياته ومنعه من فهمها قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ

(٤٢) ابن منظور، لسان العرب: ٥/ ١٥٣.
(٤٣) روح الله الخميني، اداب الصلاة/ ١٩٥.
(٤٤) المصدر نفسه/ ١٩٥.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [سورة الاعراف: ١٤٦].

ت. اعتلال الحالة النفسية:

يعد اعتلال الحالة النفسية عائقا كبيرا امام عملية النظر العقلي، وذلك لقوة العلاقة بين الحالة العقلية والحالة النفسية، ولعل ابرز مظاهر اعتلال الحالة النفسية:

اولا: الضغط النفسي (القلق):

وهو من الامراض النفسية الشائعة بين الناس وهو حالة انفعالية او شعور غامض وغير سار يتسم بالتوجس والخوف مما قد يحدث[٤٥]، وله تأثير سلبي في العمليات العقلية لما يحدثه من ((سرعة الاهتياج وضعف القدرة على التركيز وشرود الذهن والهبوط بين آن وآخر. هذا فضلا عن التردد الشاذ والتشكك وتزاحم الافكار المزعجة على المريض))[٤٦]، فالاضطراب والقلق من أكبر المصاعب في حياة الناس، والنتائج الحاصلة منهما في حياة الفرد والمجتمع واضحة للعيان، والاطمئنان واحد من أهم إهتمامات البشر، مما يحدو بالإنسان التشبث بكل وسيلة غير مشروعة كأنواع الاعتياد على المواد المخدرة لنيل الاطمئنان النفسي[٤٧]، الا ان القرآن الكريم يبين أقصر الطرق للتخلص من هذا الوباء القاتل بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [سورة الرعد: ٢٨]، إذ ان هذا الإيمان يستطيع أن يمحو آثار القلق والاضطراب ويمنحه الاطمئنان في مقابل هذه الأحداث ويؤكد له أنك لست وحيدا، بل لك رب قادر رحيم.

ثانيا: الغضب المذموم:

الغضب نقيض الرضا وهو كيفية نفسانية موجبة لحركة الروح من الداخل إلى الخارج محدثة انفعال للنفس، وهيجان ينشأ عن ادراك ما يسوؤها ويسخطها دون خوف، ومن اثاره غليان دم القلب

(٤٥) ابراهيم انيس؛ عبد الحليم منتصر واخرون، المعجم الوسيط/ ٦٥.

(٤٦) احمد عزت راجح، اصول علم النفس/ ٤٩٤.

(٤٧) ظ ناصر مكارم الشيرازي، الامثل: ٧/ ٤٠٨.

وثوران القوة والتغيير على الغير طلبا للانتقام والتشفي فيمتلئ لأجلها الدماغ والأعصاب من الدخان المظلم، فيستر نور العقل ويضعف فعله، ولذا لا يؤثر في صاحبه الوعظ والنصيحة، بل تزيده الموعظة غلظة وشدة وهو من المهلكات العظيمة، وربما أدى إلى الشقاوة الأبدية، من القتل والقطع، ولذا قيل: إنه جنون دفعي[٤٨]، يقول الغزالي: ((قوة الغضب محلها القلب، ومعناها غليان دم القلب بطلب الانتقام، وبين ان هذه القوة تتوجه عند ثورانها الى دفع المؤذيات قبل وقوعها، والى التشفي والانتقام بعد وقوعها، وهذا الانتقام هو قوت هذه القوة وشهوتها، وفيه لذتها ولا تسكن الا به...))[٤٩].

وقد ورد عن ابي جعفر عليه السلام انه قال: ((ان هذا الغضب جمرة من الشيطان توقد في قلب ابن ادم، وان احدكم اذا غضب احمرت عيناه، وانتفخت اوداجه ودخل الشيطان فيه، فاذا خاف احدكم ذلك من نفسه فليلزم الارض، فان رجز الشيطان ليذهب عنه عند ذلك))[٥٠]، والغضب على قسمين محمود ومذموم فالمحمود ما كان لله تعالى وقد امتدح القرآن صحابة رسول الله المنتجبين بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ..﴾ [سورة الفتح: ٢٩]، واما المذموم فقد بين الامام علي عليه السلام تأثيره في العقل وتعطيله عملية التفكير السليم: ((الغضب ممحقة لقلب الحكيم[٥١]؛ من لم يملك غضبه لم يملك عقله))[٥٢]، لأنه كلما: ((... اشتدت نار الغضب وقوي اضطرامها، أعمى صاحبه وأصمه عن

(٤٨) المرتضى، رسائل الشريف المرتضى: ٢/ ٢٧٨+ المازندراني، شرح اصول الكافي: ٤/ ٢٢٧+ النراقي، جامع السعادات: ١/ ٢٥٧.

(٤٩) الغزالي، احياء علوم الدين: ٣/ ١٦٧.

(٥٠) الكليني، الكافي: ٢/ ٣٠٥+ الحر العاملي، وسائل الشيعة: ١٥/ ٣٦١+ المجلسي، بحار الانوار: ٦٠/ ٢٦٥.

(٥١) الكليني، الكافي: ٢/ ٣٠٥.

(٥٢) الحر العاملي، هداية الامة الى احكام الائمة: ٥/ ٥٥١.

كل موعظة، فإذا وعظ لم يسمع بل تزيده الموعظة غيظا، وإن أراد أن يستضئ بنور عقله، وراجع نفسه، لم يقدر على ذلك، إذ ينطفئ نور العقل وينمحي في الحال بدخان الغضب، فان معدن الفكر الدماغ، ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان إلى الدماغ مظلم مستول على معادن الفكر))[٥٣].

يتبين مما سبق ان الغضب افة مدمرة للعقل واتزانه، وتطفئ التفكير السليم، فضلا عن ما يتبعه من عواقب وخيمة على الفرد وعلى وحدة المجتمع وترابطه وتماسكه لانه جند من جنود ابليس.

ثالثا: عوائق ذات بعد جسدي:

لقد اعتنى الإسلام بالصحة عناية بالغة، ووضع للأجسام كثيرا من التشريعات التي تقيها من الأمراض وتحفظها من العلل والأسقام، منها ما يتعلق بالنظافة التي تقي الأبدان من الأمراض والسقم، وقد حث الإسلام عليها فقد جعلها مرتبطة بالإيمان يقول النبي ﷺ: ((النظافة من الإيمان))[٥٤]، ومن المؤكد ان قوة الفكر وسلامته تابعة لصحة الجسم فاذا كان الجسم مصابا او مبتلى بالأمراض ضعفت القوة العقلية ولهذا جاء في المثل ((العقل السليم في الجسم السليم))، فان أي خلل يحدث عند الاشباع الخاطئ للحاجات الجسمية يكون عاملا مؤثرا يعيق عملية التفكير بشكل او بآخر والذي يتتبع الآيات القرآنية المتعلقة بصحة الأبدان يجد أن القرآن قد فرض على المسلمين كثيراً من الأصول الصحية العامة التي يعدها الطب الحديث اليوم من القواعد الوقائية الأولية التي تصلح لدفع أكثر الأمراض قبل وقوعها وللتخفيف من حدتها إذا وقعت ومن هذه الآيات القرآنية قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [سورة الاعراف: ٣١][٥٥]، إذ يبين النص

(٥٣) علي خان المدني، رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين: ٢/ ٣٣٦.

(٥٤) المجلسي، بحار الانوار: ٢٦/ ٢٩١.

(٥٥) ظ باقر شريف القرشي، حياة الامام الرضا ﷺ: ١/ ٢١٥؛ النظام السياسي

المبارك المنهج العام للصحة العامة، وأساسها التوازن، وعدم الاسراف في الأكل والشرب، وقد أعلن القرآن هذه القاعدة في حفظ بدن الإنسان ووقايته من الإصابة بالأمراض، حيث ذكر الله تعالى الإسراف بمادته في القرآن المجيد في ثلاث وعشرين مورداً، والذي يستفاد من موضوع تلك الموارد ان الإسراف بأي شيء كان وكيفما كان فهو مذموم، ولا سيما الإسراف في الموارد المحرمة الذي يسبب عدم هدايتهم الخاصة من الله كما يصرح تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴾[سورة غافر: ٢٨]، كما يسبب إضلالهم ﴿ ...كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴾ [سورة غافر: ٣٤]، وقد وردت الروايات الكثيرة في ذم الاسراف ومدى تأثيره في العقل فقد روي عن رسول الله ﷺ انه قال: ((لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب، فإن القلب يموت كالزرع إذا كثر عليه الماء))[٥٦].

ومهما يكن من امر فكفاية الجسم من الغذاء يعطي الدماغ والقلب حاجته ومن ثم يكون الدماغ والقلب مهيأين لتربية عقلية عالية، والا فينبغي الحذر من الاسراف، فالشبع يقسي ويفسد الذهن ويبطل الحفظ ويثقل الأعضاء عن العبادة والعلم ويقوي الشهوات وينصر جنود الشيطان[٥٧].

رابعا: عوائق ذات بعد إجتماعي وفي مقدمة هذه العوائق:

أ. التقليد الاعمى:

لا شك ان دعوة القرآن العظيم للنظر العقلي تقتضي ذم التقليد الاعمى للآباء، لأنه يلغي عمل العقل، فالأصل الاولي عند العقل مذمة التقليد وقبحه، وكذا الاصل الاولي عند الشرع، فانه يذم التقليد الاعمى من دون دليل، وإغلاق باب التقليد الاعمى، وفتح باب النظر والاستدلال هو مبدأ كل إصلاح فالتقليد هو الحجاب الاعظم

في الاسلام/ ٢٩٥+ حسن الجواهري، بحوث في الفقه المعاصر: ٣/ ٣٧٥.

(٥٦) المجلسي، بحار الانوار: ٦٢/ ٢٦٦.

(٥٧) ظ الغزالي، بداية الهداية/ ١١.

دون العلم والفهم[٥٨]، والمقلد حين يقبل قول الغير دون دليل يصبح إمعة كما عبّر رسول الله ﷺ: ((ما مِن أَحد إلاّ عَلى بابِهِ مَلَكانِ، فَإِذا خَرَجَ قالا: أُغدُ عالِمًا أو مُتَعَلِّمًا ولا تَكُن إِمَّعَةً))[٥٩]، والامعة هو كلّ من لا يتمتّع بالاستقلال الفكري ولا يرى لنفسه حقَّ التفكير والإدلاء برأيه، فعينُه وأُذنه مرتهنتان بأقلام الآخرين وألسنتهم فيما يكتبون وما يقولون ومن هنا كان الباعث –من وجهة النظر الاجتماعية –على اختيار الإنسان للجهل هو إمَّعِيَّتُهُ، وكونه إمَّعةً يقلّد الآخرين في عقائدهم وأعمالهم تقليداً أعمى، فلو أنّ البشر قد تحرّر يومًا من قيد التقليد، لانْحلَّ كثير من المشاكل الاجتماعية[٦٠].

ولقد عانى الانبياء عليهم السلام على اتساع الزمان والمكان من مشكلة تقديس اقوال الاباء والاجداد وإيثارهم على الهدى، ومن ثم فان الرسل الكرام شنوها حربا لا هوادة فيها ضد صنمية ميراث السابقين حتى تتهيأ عقول الناس لقبول الدعوات السماوية الجديدة التي تخالف جل ما كان يسود في مجتمعاتهم من خرافات واساطير تناقلوها كابرا عن كابر دون ادنى نظر او تمحيص، ولعل تسفيه احلام الاباء والاجداد كان من اكثر ما يثير اهل الجاهلية، ويبعث فيهم الحنق والغضب فكثير ما كانوا يستثيرون الناس ويحرضونهم على الدعوة الاسلامية بقولهم انه يسفه احلام الاباء ويستخف بعقول الاسلاف ويصفونهم انهم لا يعقلون[٦١].

لذلك دعا القرآن العظيم الى تحرير العقل وانطلاقه من ربقة التقليد الذي لا ينبعث الا من الجهل والتعصب، وقد نعى القرآن على المقلدين الذين يقولون: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ

(٥٨) ظ محمد حسن (اغا بزرك الطهراني)، توضيح الرشاد في تاريخ حصر الاجتهاد/ ٢٨+ شهاب الدين المرعشي، القول الرشيد في الاجتهاد والتقليد: ١/ ١٥٣.

(٥٩) محمد الريشهري، العلم والحكمة في الكتاب والسنة: ٢٠٨.

(٦٠) ظ محمد الريشهري، موسوعة العقائد الاسلامية: ١/ ٤٠.

(٦١) ظ عباس محمود العقاد، التفكير فريضة اسلامية/ ١٩ –٢١.

أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [سورة الزخرف: ٢٢]، وهذا يؤكد افتقارهم إلى أدنى حجة ذات قيمة في ما يعتقدون من عبادة الأوثان والعقائد الزائفة، وقد ركز على أن كل ما يمتلكونه من حجة هو أنهم وجدوا آباءهم على ذلك، فتمسكوا به، وهذا هو ديدن هذا الصنف من الناس الذي أغلق على ذهنه المنافذ، وندد بالذين ﴿ .. قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٧٠]، ليجسد ما تنطوي عليه هذه المقولة من تهافت، وما يغيب فيه هؤلاء من جهل متجذر موروث لا يصغي لدعوة حق ولا لبرهان ساطع بل ليس لديهم أكثر من ترديد مقولتهم تلك ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [سورة يونس: ٧٨]، ولو جاءهم متحديا لما وجدوا عليه آباءهم مبينا فساده لم يؤمنوا قال تعالى: ﴿ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سورة الزخرف: ٢٤]، وكثيرا ما كرر القرآن العظيم مقولتهم النكير على هؤلاء في مواضع آخر، لأنه إنما يواجه في مشروعه المعرفي نظريات استحكمت وترسخت لدى أمم متتابعة، لا يستبعد أن يكون لها امتداد في مستقبل الأمم أيضا... فلقد تجاوزت هذه النظرية حدود المعارف والمعتقدات إلى السلوك والمعاملات قال تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا قَالَ ... ﴾ [سورة الاعراف: ٢٨]، ثم بعد هذا يبين القرآن الكريم الجزاء الذي ينتظر قوما مضوا على هذا النهج، مثيرا الأذهان إلى ضرورة الحذر من نهج كهذا قال تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ [سورة الزخرف: ٢٥][٦٢].

ب. الصحبة السيئة:

اولى الاسلام عناية فائقة في امر البيئة الخاصة (الصداقة)، فلاحظ اهم جوانبها المؤثرة في جمود العقل، وانحدار الفكر في هاوية العادات

(٦٢) ظ باقر القرشي، النظام التربوي في الاسلام/ ٢٤٣.

السيئة والاخلاق الذميمة، فعوامل بناء شخصية الإنسان-بعد عزمه وإرادته وتصميمه -أمور مختلفة، من أهمها الجليس والصديق، ذلك لأن الإنسان قابل للتأثر شاء أم أبى، فيأخذ قسطا مهما من أفكاره وصفاته الأخلاقية عن طريق أصدقائه، ولقد ثبتت هذه الحقيقة من الناحية العلمية وعن طريق التجربة والمشاهدات الحسية فهي من اقوى العوامل التربوية التي تنقل خلق كل واحد واتجاهاته وميوله الى الاخر[٦٣].

وقد اكد علماء الاجتماع هذه الظاهرة فقالوا: ((ان الحياة الاجتماعية حياة تأثير وتأثر، فكل انسان يتأثر فيمن حوله ويؤثر فيمن حوله))[٦٤]، وحيث ان قابلية التأثر هذه نالت اهتماما خاصا لدى الإسلام إلى حد أنه نقل في الروايات عن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام انه قال: ((ومن اشتبه عليكم أمره ولم تعرفوا دينه، فانظروا إلى خلطائه، فإن كانوا أهل دين الله فهو على دين الله، وإن كانوا على غير دين الله، فلا حظ له من دين الله))[٦٥].

وقد حث الاسلام بإصرار بالغ على اختيار الصديق ذي الشرف والنبل والاستقامة حتى يكتسب منه حسن السلوك، وفضائل الاعمال يقول الامام الحسن بن علي عليه السلام: ((واذا نازعتك الى صحبة الرجال حاجة، فاصحب من اذا صحبته زانك، واذا خدمته صانك، واذا اردت منه معونة اعانك، وان قلت صدق قولك...، من لا تأتيك منه البوائق، ولا تختلف عليك الطرائق، ولا يخذلك عنه الحقائق، وان تنازعتما منقسما اثرك))[٦٦]. كما حذر من صحبة المصابين ببعض الامراض المؤثرة على النظر العقلي ممن اصيب بأمراض نفسية وعاهات اخلاقية قال الامام علي موصيا ولده الامام الحسن عليه السلام: ((يا بني، اياك

(٦٣) ظ الصدوق، صفات الشيعة/ ٦ -٧+ ناصر مكارم الشيرازي، الامثل/ ١١/ ٢٤٣.

(٦٤) ظ باقر القرشي، النظام التربوي في الاسلام/ ١٣٩.

(٦٥) الصدوق، صفات الشيعة/ ٦+ الحر العاملي، وسائل الشيعة: ١٦/ ٢٦٥+ المجلسي، بحار الانوار: ٧١/ ١٩٧.

(٦٦) المجلسي، بحار الانوار ٤٤/ ١٣٩.

ومصادقة الاحمق، فانه يريد ان ينفعك فيضرك؛ واياك ومصادقة البخيل، فانه يقعد عنك احوج ما تكون اليه؛ واياك ومصادقة الفاجر، فانه يبيعك بالتافه؛ واياك ومصادقة الكذاب، فانه كالسراب يقرب عليك البعيد، ويبعد عليك القريب)) (٦٧).

ت. تفكك الروابط الاجتماعية:

تعد صلة الارحام من اهم الروابط الاجتماعية التي تؤكدها الشريعة الاسلامية لما لها من علاقة وثيقة بالتفكير، وقد اكد القرآن الكريم ان جزاء قاطع الرحم غلق منافذ التفكير لديه قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [سورة محمد: ٢٢-٢٤].

وذلك يعني ان الذين يفسدون ويقطعون الارحام لعنهم الله فابعدهم من رحمته (فأصمهم) أي سلبهم فهم ما يسمعون بآذانهم من مواعظ الله في تنزيله، و (اعمى ابصارهم) بمعنى سلبهم عقولهم فلا يتبينون حجج الله، ولا يتذكرون ما يرون من عبره وادلته(٦٨).

وقد جاء عن رسول الله ﷺ انه قال: ((اذا ظهر العلم، واحترز العمل، وائتلفت الالسن، واختلفت القلوب، وتقاطعت الارحام هنالك لعنهم الله فاصمهم واعمى ابصارهم))(٦٩).

يقول الشيخ الطوسي (ت٤٦٠هـ): ((... واعمى ابصارهم أي سماهم عميا وصما وحكم عليهم بذلك لانهم بمنزلة الصم والعمي من حيث لم يهتدوا الى الحق ولا ابصروا الرشد، ولم يرد الاصمام في الجارحة والاعماء في العين لانهم كانوا بخلافه صحيحي العين صحيحي السمع))(٧٠)، وانما اطلق الصم لأنه لا يكون الا في الاذن وقرن

(٦٧) المجلسي، بحار الانوار: ٧١/ ١٩٩+ الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٨/ ٤١٩.

(٦٨) ظ الطبري، جامع البيان عن تأويل أي القرآن: ٢٦/ ٧٤.

(٦٩) الصدوق، ثواب الاعمال/ ٢٢٤+ الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٢١/ ٤٩٤.

(٧٠) الطوسي، التبيان: ٩/ ٣٠٣.

العمى بالأبصار لأنه قد يكون بالبصر وبالقلب[٧١].

ثم جاء بالاستفهام للتوبيخ فقال ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ... ﴾ أي افلا يتفهمونه فيعلمون بما اشتمل عليه من المواعظ الزاجرة والحجج الظاهرة والبراهين القاطعة التي تكفي من له عقل فتزجره فهم اما لا يتدبرون القرآن فيبعدون منه لان الله تعالى لعنهم وابعدهم عن الخير والصدق، والقرآن منهما الصنف الاعلى بل النوع الاشرف، واما يتدبرون لكن لا تدخل معانيه في قلوبهم لكونها مقفلة[٧٢].

الخاتمة والنتائج:

بعد هذه السياحة في أرجاء ما انتظمته المصنفات والبحوث والدراسات مما حوته المكتبات والمواقع الإليكترونية وما أفدناه من أفواه أساتذتنا الكرام، على ضوء فرضية مفادها: ضرورة تدوين مستقل لمعوقات النظر العقلي في القرآن الكريم، خلص البحث إلى نتائج أهمها الآتي:

١. ان شمولية القرآن الكريم لمختلف جوانب الحياة يعني شمولية النظر العقلي لمختلف جوانبه، وهذا يتطلب شمولية معالجة القرآن الكريم لعوائق النظر العقلي التي تعترضه وتحريره منها، ذلك ان هناك عوائق تأخذ بعدا عقليا واخرى نفسيا فضلا عن العوائق ذات البعد الجسدي والاجتماعي.

٢. ان النصوص القرآنية المباركة حملت بآفاق تعبيرية، واساليب استدلالية نقلت العقل العربي الاسلامي نقلة واسعة من جمود الجاهلية وسطحية مفاهيمها، وجاء بمفاهيم جديدة قدمت عقيدة نقلت الإنسان المسلم من سذاجة التصور لملامح العقيدة الى منظور يصمد في وجه هجمات المنظومات الاخرى للأديان والملل كلها، ويحقق اهلية الخاتمية والعالمية للرسالة وهي اهم خصائصه.

٣. اشتمل القرآن الكريم على

(٧١) ظ الطبرسي، مجمع البيان: ٩/ ١٧٤.
(٧٢) ظ الرازي، تفسير الرازي: ٢٨/ ٦٥+ الشوكاني، فتح القدير: ٥/ ٣٨+ ناصر مكارم الشيرازي، الامثل: ١٦/ ٣٧٦.

توجيهات لتنمية النظر العقلي تتمثل في ذم الهوى واتباع الاباء والاجداد ورفض كل الامور التي تحد من الارتقاء بالعقل وجموده.

٤. ان النهي عن اتباع الظن المذموم يوجب على المسلم الا يتسرع في اصدار احكامه وان يبذل وسعه للإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه، والتفكير السليم هو الذي يقود صاحبه الى احكام صائبة وهذا اول ما توصف به العقلية العلمية في القرآن الكريم لأنها ترفض الظن في كل موضع يطلب فيه اليقين كما في مقام تأسيس العقائد التي تقوم على نظرة الإنسان الى الوجود، والقرآن حين يدعو الى التحرر من العوائق والتي منها اتباع الظن المذموم إنما يؤسس القاعدة الاساسية للتفكير والنظر السليم، التي إن اصابها خلل فسيكون التفكير منحرفا لأنه مغلول بقيود تمنعه من بلوغ الحق.

٥. ان الحرب التي شنها الاسلام على الجمود الفكري، والاستسلام العقلي للخرافات و الأساطير، دون وعي وتمحيص، ترمي الى تكوين عقلا استدلاليا عند الإنسان لا يتقبل فكرة دون تمحيص ولا يؤمن بعقيدة ما لم تحصل على برهان ليكون هذا العقل الواعي ضمانا للحرية الفكرية وعاصما له من التفريط بها، بدافع من تقليد أو تعصب أو خرافة، فلا يكفي لتكوين التفكير الحر لدى الإنسان ان يقال له: فكر كما يحلو لك، كما صنعت الحضارة الغربية لان هذا التوسع في الحرية سوف يكون على حسابها، ويؤدي في كثير من الأحايين إلى ألوان من العبودية الفكرية.

٦. ان من ابرز اثار اتباع الهوى انه يسلب الإنسان أهم وسائل الهداية، والذي في مقدمتها الإدراك الصحيح للحقائق، فضلا عن انه يلقي الحجب على عقل الإنسان وعينيه، ولعل التحصن من هذا المعوق خطوة ضرورية لا غنى عنها لطالب

الحق والعلم، ذلك أن العالم يجب ان يستبعد كل ما يتعلق بذاته في مقابل ما يسمى ((الموضوعية))، والتي هي مبدأ مهم في منهج النظر[٧٣].

٧. ذم الاسلام الغضب وعده آفة مدمرة للعقل واتزانه، فهو يطفئ التفكير السليم، فضلا عن ما يتبعه من عواقب وخيمة على الفرد وعلى وحدة المجتمع وترابطه وتماسكه لأنه جمرة من الشيطان وجند من جنوده كما يعبر عن ذلك الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: ((ان هذا الغضب جمرة من الشيطان توقد في قلب ابن ادم، وان احدكم اذا غضب احمرت عيناه، وانتفخت اوداجه ودخل الشيطان فيه، فاذا خاف احدكم ذلك من نفسه فليلزم الارض، فان رجز الشيطان ليذهب عنه عند ذلك))[٧٤].

(٧٣) ظ ناصر مكارم الشيرازي، الامثل: ١٦/ ٢١٧-٢١٨.

(٧٤) الكليني، الكافي: ٢/ ٣٠٥+ الحر العاملي، وسائل الشيعة: ١٥/ ٣٦١+ المجلسي، بحار الانوار: ٦٠/ ٢٦٥.

أهم المصادر والمراجع:

خير ما نبتدئ به كتاب الله تعالى القرآن الكريم.

١. الحر العاملي: محمد بن الحسن الحر العاملي (ت ١١٠٤هـ)، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، تح: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط ٣، مطبعة مهر، ١٤١٤هـ.ق.

٢. هداية الامة الى معرفة احكام الائمة، تح/ قسم الحديث في مجمع البحوث الإسلامية، ط١، مؤسسة الطبع والنشر التابعة للآستانة الرضوية المقدسة -مشهد -ايران، ١٤١٢هـ.

٣. الزركشي: محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤هـ)، البرهان في علوم القرآن، تح/ محمد أبو الفضل، ط١، ١٣٧٦هـ، دار أحياء الكتب العربية- القاهرة.

٤. السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١هـ)، الإتقان في علوم القرآن تح/ سعيد

المندوب، ط١، مطبعة دار الفكر، لبنان، ١٤١٦ هـ-١٩٩٦م.

٥. الشوكاني: محمد بن علي الشوكاني (١٢٥٠هـ)، فتح القدير (الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)، دار الفكر -بيروت ١٩٨٣م.

٦. الصدوق: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي (ت٣٨١هـ)، علل الشرائع، ، طبع ونشر المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م.

٧. الاحتجاج، تح، السيد محمد باقر الخرسان، مطبعة منشورات دار النعمان للطباعة والنشر، النجف الأشرف، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦ م.

٨. الطبرسي، أبو الفضل علي بن الحسين (من أعلام القرن السابع الهجري والمتوفى في أوائل هذا القرن): مشكاة الأنوار في غُرر الأخبار، تح/ مهدي هوشمند، ط١، دار الحديث، ١٤١٨هـ.

٩. الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: صدقي جميل العطار، طبع ونشر دار الفكر، بيروت ١٤١٥هـ.

١٠. الطوسي: أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي (٤٦٠هـ)، التبيان في تفسير القرآن، تح/ أحمد حبيب قصير ألعاملي، الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٠م.

١١. الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (٥٠٥هـ)، : إحياء علوم الدين، ط١، دار الرسالة- القاهرة، ٢٠٠٣م -١٤٢٤هـ.

١٢. الفخر الرازي: فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي (ت ٦٠٦ هـ)، تفسير الرازي، التفسير الكبير: أو مفاتيح الغيب، ط١- دار الكتب العلمية -بيروت- ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

١٣. الفيض الكاشاني: محمد بن المرتضى المدعو بمحمد محسن (ت١٠٩٣هـ)، المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، تح/ علي أكبر

الغفاري، ط٢، مطبعة مهر -قم، الناشر: دفتر انتشارات إسلامي، د. ت.

١٤. القمي: أبو الحسن علي بن إبراهيم القمي (٣٢٩هـ)، فقه الرضا، تح: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لاحياء التراث، ط١، الناشر: المؤتمر العالي للإمام الرضا عليه السلام، مشهد -قم، ١٤٠٦هـ. ق.

١٥. الكليني: محمد بن يعقوب (ت ٣٢٩هـ)، الكافي، تحق/ علي اكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٦٣هـ ش.

١٦. المازندراني: محمد صالح (ت ١٠٨١ هـ)، شرح أصول الكافي، تح/ علي عاشور، ط١، دار إحياء التراث العربي -بيروت، ١٤٢١هـ.

١٧. المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي (ت ١١١١هـ)، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، تح/ محمد تقي اليزدي، محمد باقر البهبودي، ط٣، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٣م.

١٨. المدني: السيد علي خان الحسيني الشيرازي (ت ١١٢٠هـ)، رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين، تح/ السيد محسن الاميني، ط٤، مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٥هـ.

١٩. المرتضى: علي بن الحسين الموسوي المعروف بالشريف المرتضى (٤٣٦هـ)، رسائل الشريف المرتضى، تح و تقد/ السيد أحمد الحسيني، د. ط، مطبعة سيد الشهداء -قم، ١٤٠٥هـ.

٢٠. النراقي: محمد مهدي (ت ١٢٠٩هـ)، جامع السعادات، تح/ السيد محمد كلنتر، ط٥، منشورات جامعة النجف الدينية -مطبعة الآداب، ٢٠٠٣م -١٤٢٤هـ.